إحلال سلطة الدّولة محلّ سلطة القبيلة في بلاد الأندلس في مرحلة إمارة عبد الرّحمن الدّاخل (756 – 788م).

أ.أسماء أحمد الأحمر
جامعة غريان/ كليّة الآداب- قسم التاريخ

مقدّمة

قامت الدّولة الأموية في الأندلس إثر انتصار عبد الرحمن بن معاوية في معركة "المصارة" ودخوله إلى قرطبة، ولم تعد الأندلس منذ ذلك التاريخ تتبع الخلافة الإسلامية في المشرق كما كانت في عهد الولاة السابقين، بل أصبحت إمارة مستقلة سياسياً يحكمها عبد الرحمن وذريته من بعده. وكان كل شخص من حكامها يسمّى أميراً، أما عبد الرحمن فقد لقب (بالداخل)، لأنه أول من دخل الأندلس وحكمها من بني أمية. كما عرف أيضاً باسم عبد الرحمن الأول تمييزاً له عن أميرين آخرين حكما الأندلس باسم عبد الرحمن، وهما عبد الرحمن الثاني أو الأوسط، وعبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله).

امتد عهد الإمارة حوالي مائة وثمانية وسبعين عاماً تقريباً، بدأ بدخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس، بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق وقيام الدولة العباسية. وفي هذا العهد لم تعد الأندلس ولاية تابعة للخلافة الإسلامية كما كانت في العهدين السابقين (عهد الفتوحات . وعهد الولاة)، بل غدت إمارة مستقلة ذات سيادة، لا ترتبط بولاية الشمال الإفريقي ولا يصلها بمركز الخلافة العباسية في بغداد أيُ رباط.

وتتناول ورقة البحث هذه محاولة عبد الرحمن الداخل تغيير مفهوم الحكم وإحلال سلطة الدولة محل سلطة القبيلة والعصبيات (التي ما تزال تؤثر في سياسات بعض الدول العربية حتى أيامنا هذه) والتحديات التي واجهته في تنفيذ مشروعه الذي أراد من خلاله توحيد دولته على أسس حضارية وتحقيق الاستقرار فيها على الصعيدين الداخلي والخارجي.

عبد الرحمن الداخل وإعادة الحكم الأموي إلى الأندلس:

انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين إثر نجاح الثورة العباسية، وانتهى أمر بني أمية بالمشرق سنة 132هـ / 750م عندما قتل آخر خلفائهم، مروان بن محمد، على يد العباسيين (المقري، 1968 ج1: 327). هذا، وقد بدأ العباسيون في أعقاب سقوط الخلافة الأموية باضطهاد الأمويين وتتبعهم بالقتل والتمثيل بهم (عنان، 1969: 147). ونتيجة لهذه المعاملة هرب أمراء بني أمية وتفرقوا بين القبائل العربية في البادية. وتشير العديد من المصادر أن عمّ الخليفة العباسي عبد الله بن علي قد نفّذ

مذبحة بشعة بحق أمراء بني أمية راح ضحيتها العديد منهم (دوزي، 1963: 182). وكان يحي وعبد الرحمن، حفيدا الخليفة هشام بن عبد الملك، من المحظوظين القلائل الذين أفلتوا من هذه المذبحة. إلا أن العباسيين استطاعوا بعدها أن يلقوا القبض على يحي ويقتلوه، أما عبد الرحمن فقد كتبت له النجاة؛ لأنه كان غائباً في أثناء غارة الجند على القرية التي كانا يختبئان فيها. وعندما عاد وعلم بمصير أخيه، هرب إلى قرية أخرى (ابن عذاري، 1951 ج2: 40). وعلى الرغم من ذلك لم يفكر في المكوث طويلاً في مخبئه الجديد بعد أن لحقت به أسرته، وكان يفكر في التوجه إلى المغرب، ولكن العباسيين سرعان ما اكتشفوا مكانه، وداهموه من جديد. ولم يتمكنوا من القبض عليه. ويلاحظ مما سبق مدى الإصرار الكبير لدى العباسيين للقضاء على أمراء بني أمية أينما وجدوا وحيثما حلّوا.

وقد روت بعض المصادر قصة هروب عبد الرحمن بن معاوية: أنه كان يرقد في حجرة مظلمة لرمد في عينيه حين دخل عليه ابنه سليمان ليخبره بأنه رأى الرايات السوداء (راية العباسيين) تحاول تطويق القرية التي يتواجد بها، فأسرع بالهرب لضيق الوقت، وأوصى أختيه بأن تلحقا به خادمه بدر إن سلم من مطاردة العباسيين له. وكان هؤلاء قد سدوا عليه كل سبل النجاة، فلم يبق أمامه وأمام أخيه الأصغر الذي كان بصحبته سوى إلقاء نفسيهما في نهر الفرات. فاستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة، ولكن أخاه عجز عن قطعه. فرجع مصدّقاً وعود جند العباسيين له بالأمان. ولكن هؤلاء ما إن وصل إليهم حتى بادروا بقتله أمام عيني أخيه عبدالرحمن في الضفة الأخرى من النهر(ابن عذاري،1951ج2: 41).

وبعد كل هذا الكر والفر بين عبد الرحمن بن معاوية وخصومه العباسيين، استطاع الوصول إلى فلسطين، حيث إلتحق به مولاه بدر، ومولى أخته، سالم أبوشجاع. ويقال أن هذا الأخير كان على معرفة بمناطق شمال إفريقيا (المقري، 1968 ج1: 312). وقد غادر عبد الرحمن ورفيقاه إلى مصر، ومنها إلى برقة، التي بقى مستتراً فيها مدة، ثم رحل عنها إلى إفريقية (تونس الحالية)، حيث لم تكن سلطة العباسيين قد اعترف بها هناك. وكان العديد من الفارين من أفراد البيت الأموي قد ذهبوا أيضاً إلى إفريقية. وكان حاكم إفريقية في ذلك الوقت عبد الرحمن ابن حبيب الفهري، الذي لم يعترف بسلطة العباسيين، إذ كان يطمح بتحويل إفريقية إلى إمارة وراثية لأسرته. لذا من الطبيعي أن يكون هذا المكان غير ملائم للجوء الأمويين، لأنهم يشكلون خطراً على حكم عبد الرحمن الفهري الذي قرر القضاء عليهم (بدر، 1972: 75 – 76).

ظل عبد الرحمن بن معاوية يتنقل في شمال إفريقيا من مكان إلى آخر ما يقرب الخمس سنوات، فأقام أولاً عند قبيلة مكناسة، ثم انتقل إلى قبيلة نفزة التي كانت تقيم في سبته (مؤنس، 1959: 664) حيث أخواله؛ إذ كانت أمه بربرية من قبيلة نفزة اسمها راح. وقد حصل أيضاً على حماية قبائل أخرى

في المنطقة، مثل زناته وغيرها. كما أواه أبو قرة وانسوس المغيلي زعيم قبيلة مغيلة، وحماه من متعقبيه (ابن القوطية، 1958: 21).

وكانت الأحوال في الأندلس وقتئذ مضطربة، بسبب الفتن والعصبيات القبلية، والنزاع بين بعض القبائل العربية. وكان الحكم فيها آنذاك ليوسف بن عبد الرحمن الفهري، وهو واليها الأخير، وللصميل بن حاتم (زعيم القيسية) الذي استطاع أن يهزم الوالي أبي الخطار (زعيم اليمنية) ويقتله في موقعة (شقندة) التي جرت بالقرب من قرطبة (العبادي، 1973: 300).

وتعتبر هذه الموقعة بمثابة الضربة للقبائل اليمنية، كما أنها أفسحت الطريق للصميل بالإستئثار بالحكم، مما أزعج يوسف الفهري، فعمد إلى إبعاده، وذلك بتوليته على مدينة سرقسطة في الشمال الشرقي من البلاد (سالم، 1997: 165). ومن العوامل الأخرى التي ساعدت عبد الرحمن بن معاوية في تنفيذ خطته للعبور إلى الأندلس، وإعادة سلطان بني أمية إليها. وجود العديد من الموالي والأنصار الموالين لهم في الأندلس، وخاصة في كورتي البيرة وجيان. وهؤلاء كانوا قد شكلوا مجموعة الموالي الذين رافقوا الشاميين ضمن جند دمشق وقنسرين، وكانوا على اتصال بالبيت الأموي. ولهذا عرفوا بموالي بني أمية (ابن عذاري، 1951: 42)، ومن زعمائهم أبو الحجاج يوسف بن بخث، الذي كان رئيساً للموالي في جيان، وأبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبدالله بن خالد، اللذان كانا من رؤساء الموالي في جند دمشق بالبيرة. وكان لهؤلاء الموالي مكانة جيدة، ويملكون ثروة لا بأس بها، لا سيما زعمائهم. (ابن القوطية، 1958: 21).

وفي ظل هذه الأوضاع غير المستقرة والحرب الأهلية بين القيسيين واليمنيين وجد عبدالرحمن بن معاوية بغيته في العبور إلى الأندلس، حيث أرسل مولاه (بدراً) إلى موالي بني أمية يطلب مساندتهم وعونهم، وقد عبر بدر هذا إلى الأندلس في أواخر عام 136هـ / 754م، وقابل أبا عثمان في طرش، فأرسل الأخير إلى عبدالله بن خالد، واتفقا على استشارة يوسف بن بخث، زعيم الموالي في جند قنسرين (المقري، 1968 ج3: 29).

وبعد اطلاع زعماء الموالي على رسالة عبد الرحمن بن معاوية قرروا مساندته وتأييد مشروعه في إعادة الحكم الأموي إلى الأندلس، وأن نجاح قضية الأمير عبدالرحمن سيضمن مصالحهم ويحقق لهم مكاسب كبيرة، وأن تغيير نظام الحكم القائم في الأندلس سيجرد الصميل من قوته ونفوذه في البلاد. لذلك قرروا بادئ الأمر إخفاء عرض عبد الرحمن الحقيقي في طلب السلطة، واكتفوا بالقول بأن عبدالرحمن لا يريد إلا الحماية، واستعادة أملاك الخمس التي تعود إلى جده هشام بن عبد الملك (المقري، 1968 ج3: 30). وكانوا واثقين من الصميل في كتمانه للسر، حتى في حالة رفضه للأمر، ولن يشي بهم عند يوسف الفهري. فكان هذا سبباً في خروجهم مع من خرج من القيسية لفك الحصار

عن الصميل في سرقسطة، ويبدو أن موالي بني أمية أرادوا أن يقدموا بمساهمتهم في فك الحصار عنه يداً عنده، فيؤيدوا قضية ابن معاوية. وكان عبد الرحمن قد بعث إليهم بخاتمه ليكتبوا به عنه إلى كل من رجا نصره، فكتبوا عنه للصميل يذكرون له أيادي بني أمية عنده ويعدونه ويمنونه (سالم، 1997: 180).

مما سبق يتضح أن للعصبية القبلية دورًا بارزًا في ترجيح الكفة لتلك العصبية أو لأخرى، وأن الصراع القبلي بين القيسية واليمنية أدى إلى إضعاف الأندلس وجعلها فريسة سهلة لكل الطامعين.

دور القبيلة والعصبية في تثبيت السلطة:

يرى ابن خلدون في مقدمته أن الدعامة الأساسية للحكم تكمن في العصبية، كما أنها في رأيه المحور الأساس في حياة الدول والممالك. فالغاية التي تجري إليها العصبية هي (الملك)، وهذه هي المرحلة الأولى في تأسيس الدولة، وهي لا تتم إلا من خلال العصبية. "فالعصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه، وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية وإلاّ لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك " (ابن خلدون، د.ت: 139).

ومن خلال مجريات الأحداث يتضح أن عبد الرحمن بن معاوية قد اعتمد في البداية على العامل القبلي في تحقيق هدفه المتمثل في إعادة الحكم الأموي للأندلس، ويظهر ذلك جلياً في تحالفه مع القبائل اليمنية، بعد أن رفض الصميل بن حاتم زعيم القيسية مشروعه. فلم يكن أمامه سوى الاتصال بجماعة اليمنيين الذين كانوا يضمون الكثير من البلديين الأوائل ومعظم رجال الأجناد في حمص والأردن وفلسطين، وقد استجابوا لدعوته. وكان السبب الحقيقي الذي دعا اليمنيين لنصرة عبد الرحمن بن معاوية هو الانتقام من الصميل ويوسف الفهري، خاصة بعد هزيمتهم في موقعة شقندة. بالإضافة إلى استيائهم من سياستهما التي استهدفت تجريدهم من بعض ممتلكاتهم لصالح مؤيديهم من جند قنسرين ودمشق (ابن عذاري، 1951 ج2: 44). ولقد كان هؤلاء اليمنيون، بالإضافة لجماعة البلديين الأوائل، والبربر، ناقمين على سياسة الصميل، وأرادوا تغيير نظام الحكم في البلاد، فسارعوا لتأييد ومناصرة عبد الرحمن بن معاوية (المقري، 1968 ج3: 31).

واستغل موالي بني أمية نجاح الدعوة فعملوا على الإسراع باستقدام عبدالرحمن، فنزل في ميناء المنكّب (بين مدينة المرية ومالقة)، في ربيع الثاني 138هـ / 755م. وقد استقبله كبار زعماء الموالي وهما عبد الله بن خالد، وأبو عثمان، ثم أخذاه إلى قرية طُرش (ابن القوطية، 1958: 24). وحضر إلى مقره الجديد زعماء الموالي اليمنيين، وأخذ معسكره يزداد بالمؤيدين والأنصار من كل مكان. وعندما علم يوسف الفهري بوصول عبد الرحمن الداخل كتب إلى عامله في (البيرة) يأمره بإلقاء القبض عليه. ولكن

تنفيذ هذا الأمر كان صعباً، نظراً لوجود أعداد كبيرة من المؤيدين والأنصار حول عبد الرحمن، وعندما علم موالي بني أمية بهذه المراسلات أخفوا عبد الرحمن في المناطق الجبلية. وفي الوقت نفسه حاولوا تضليل يوسف الفهري، فكتبوا إليه بأن عبد الرحمن لم يأت للأندلس طمعاً بالملك، وإنما جاء يطلب المال والأمان بين مواليه (السامرائي، 2000: 96).

أمّا الصميل فلم يقتنع بالرد، وأصر على مهاجمة عبد الرحمن بأسرع وقت، فتوجه الجيش لهذا الهدف، غير أنّ حلول الشتاء وهطول الأمطار وفيضان الأنهار، حال دون الاستمرار بالحملة، لذلك أمر يوسف جنده بالرجوع إلى قرطبة. وقام بإرسال وفد يحمل الهدايا لعبدالرحمن الداخل ويعرض عليه المال مقابل الكف عن المطالبة بإمارة الأندلس، غير أن عبدالرحمن قد رفض ذلك (ابن عذاري، 1951 ج2: 45).

وتعتبر معركة المصارة (Almazara) البداية الحقيقية لقيام دولة موحدة تحت إمرة شخصية قوية كان لها أثرها الواضح فيما بعد في مجريات الأحداث التي مرت بها بلاد الأندلس. فبعد أن التف المؤيدون والأنصار حول عبد الرحمن، وخاصة من اليمنيين والشاميين والبلديين وعلى رأسهم أبو الصباح يحي اليحصبي زعيم اليمنية، قرر المسير بجيشه إلى العاصمة قرطبة بمن معه من الأجناد الثلاثة: جند فلسطين وجند الأردن وحمص وكلها يمنية وكان لكل منها ألويتها الخاصة، بينما لم يكن للأمير الأموي لواء خاص، لهذا بادر أبو الصباح اليحصبي وعقد له لواءً بسيطاً يتألف من عمامة مثبتة على رمح، وكان ذلك في كورة إشبيلية (سالم، 1997: 188). وهكذا بدأ السباق بين الجيشين للوصول إلى قرطبة؛ فكلما سار عبدالرحمن سار يوسف، وكلما عسكر أحد الجيشين، عسكر الآخر في الجهة المقابلة من نهر الوادي الكبير. وانتظر الفريقان ثلاثة أيام حتى ينخفض مستوى ماء النهر، وفي هذه الأثناء بذل يوسف الفهري أكثر من محاولة لعقد الصلح لما رآه من الضعف في صفوف جيشه. وفي اليوم التاسع من ذي الحجة عام 138 هـ / 765م هاجم عبدالرحمن على حين غره جيش يوسف الفهري، واضطره للقتال دون استعداد وتنظيم (الفلاحي، 2003 ج1: 58). نشب القتال بالقرب من المصارة، وكانت المعركة قصيرة، انتهت بهزيمة يوسف والصميل هزيمة نكراء، ودخل عبد الرحمن قرطبة دخول الأبطال، واستقر بقصر مغيث وأصبح أمير الأندلس بلا منازع (ابن القوطية، 1958: 29).

دخل عبد الرحمن إلى قرطبة، ثم أدى صلاة الجمعة في مسجدها الجامع، حيث بايعه أهلها على الطاعة. وقد استغلت بعض العناصر في جيشه هذه الفرصة، وشرعت في نهب المدينة، وبشكل خاص، ممتلكات يوسف الفهري والصميل؛ وعندما علم عبد الرحمن بأعمال السلب والنهب التي جرت في المدينة، أمر بالكف عنها، وإعادة ما أخذ من الأموال إلى أصحابها. غير أن هذا الموقف لم يحظ بتأييد

كل أنصار عبد الرحمن، وقد استاء اليمنيون واتهموه بالتعصب إلى قبيلته قريش (ابن القوطية، 1958: 30). وقد أراد بعض قادتهم القيام بالانقلاب عليه وعلى مواليه الأمويين، ليتمكنوا من الإستئثار بحكم الأندلس. وكان أبو الصباح اليحصبي، زعيم غرب الأندلس، من أهم القادة اليمنيين الداعين لهذا الأمر، فقد أراد أن يجعل من فتح الأندلس فتحين الأول بالقضاء على يوسف الفهري والثاني بالتخلص من عبدالرحمن الداخل، ولكن سرعان ما أفشيت المؤامرة، فاتخذ عبد الرحمن إجراءات لحماية نفسه ودولته الجديدة (سالم، 1997: 191). وبهذا يبدأ عهد جديد في تاريخ الأندلس.

الثورات التي قامت ضد عبد الرحمن الداخل نتيجة لسياسة الحد من النفوذ القبلي:

لقد تعرض عصر الإمارة الأموية إلى العديد من الثورات والفتن الداخلية التي كانت تقوم بها مختلف العناصر التي تألف منها المجتمع الأندلسي الجديد. واشترك في هذه الفتن الفاتحون الذين كانوا يتألفون من القبائل العربية والبربر، كما شارك فيها أيضاً أهل البلاد الأصليون، سواء منهم من دخل في الإسلام كالمولدين، أو من بقي على دينه وتثقف بالثقافة العربية كالمستعربين، ولم تندمج هذه الأجناس المختلفة مع بعضها البعض، ولهذا فقد كانت الأمور تتوقف على مدى قوة وصلابة الأمراء والحكومة المركزية في قرطبة، كما أن طبيعة البلاد الجغرافية الجبلية ساعدت هذه الفئات على ما تريد من التمرد والانشقاق ومحاولة الاستقلال.

ومن أهم هذه الثورات والفتن التي حدثت في عهد عبد الرحمن الداخل :-

أ . ثورة القبائل العربية:

أعلن يوسف الفهري العصيان في سنة 142هـ / 759م بإيعاز من الصميل بن حاتم، وفر من قرطبة إلى مدينة ماردة (Merida) حيث جمع جيشاً كبيراً معظمه من البربر لغزو قرطبة. وخرج عبد الرحمن لملاقاته بعد أن اعتقل الصميل بتهمة التآمر ضده، وانتهى هذا الصراع بهزيمة يوسف وفراره ومقتله بيد بعض أعوانه، أما الصميل بن حاتم فقد تخلص منه عبدالرحمن بأن دسّ له من خنقه في سجنه (العبادي، 1973: 310).

إن السياسة التي سار عليها عبد الرحمن الداخل منذ توليه الحكم في الأندلس كانت تهدف للحد من نفوذ رجال القبائل العربية، لهذا حاول التقليل من الاعتماد عليهم، وخلق قوة جديدة تعتمد على المماليك والبربر القادمين من شمال إفريقيا. وعندما أدرك رجال القبائل اليمنية وحلفاؤهم ما كان يسعى إليه عبد الرحمن، بدأوا بالثورة عليه. كما أنّ مجيئه للحكم لم يحقق لهم ما كانوا يتطلعون إليه من السلطان (العبادي، 1973: 311). وتبين لهم أنّ الأمير عدّهم أداة للوصول إلى الحكم، ومن ثم عاملهم معاملة الأتباع الذين عليهم الطاعة فقط. فلم يعجب هذا التصرف شيوخ اليمنيين، بل إنّ بعضهم حاول الانقلاب عليه بعد انتصاره مباشرة في معركة المصارة.

وعندما قام العلاء بن المغيث (رئيس جند مصر في باجة جنوب البرتغال الحالية) في سنة 146هـ / 763م بثورته ضد عبد الرحمن انتهز اليمنيون هذه الفرصة وانضموا إليه يؤيدونه، حيث قام العلاء بن المغيث برفع أعلام العباسيين فاتجه إليه عبد الرحمن لمحاربته، وتذكر بعض المصادر العربية، أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، كان وراء هذا العصيان، فحرض العلاء على التمرد، واسترداد الأندلس للخلافة العباسية ووعده بإمارة الأندلس إن تمكن من الانتصار على عبدالرحمن بن معاوية (ابن عذاري، 1951 ج2: 52). في بادئ الأمر استطاع العلاء محاصرة عبد الرحمن الداخل في مدينة قرمونة (Carmona) شرق إشبيلية لمدة شهرين. ثم تمكن عبد الرحمن من الخروج بجنوده من المدينة، وهو مصمم على النصر أو الموت، فانقضّوا على جند العلاء وقتلوا أعداداً كبيرة منهم ومن بينهم العلاء بن المغيث نفسه.

وتذكر بعض المصادر أنّ الأمير عبد الرحمن أمر بإرسال رأس العلاء بن المغيث إلى الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور. وعندما رأى المنصور رأسه، انزعج وقال: "الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحراً". ولقد لقّب المنصور على إثر هذا الحادث، الأمير عبدالرحمن بن معاوية، بلقب (صقر قريش)؛ وذلك اعترافاً منه بقوة وعزيمة هذا الأمير الذي استطاع أن يؤسس بمفرده دولة، ويمصر الأمصار، ويجند الأجناد، ويدون الدواوين، وينال ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته (ابن الخطيب، 1956: 10).

ومن الثورات التي قامت ضد معاوية أيضاً كانت سنة 149هـ / 766م، حيث ثار أبوالصباح بن يحي اليحصبي، وكان الأمير قد ولاه اشبيلية، ثم عزله عنها بعد ثورة سعيد اليحصبي لشكه في أمره، فنقم عليه أبوالصباح لذلك، وألب عليه الأجناد في غرب الأندلس. وعندما تبين للأمير عظم نفوذ أبي الصباح وقوته، حاول التفاوض معه واستدراجه بالحيلة إلى قرطبة حيث قتله فتفرق جنده (سالم، 1997: 200).

ب . ثورات البربر:

لقد ساهم البربر في معظم الثورات التي قامت بها القبائل العربية في الأندلس. والسّبب في ذلك يعود إلى عدة عوامل، منها أن الكثير من البربر تربطهم مصالح مشتركة مع حلفائهم من القبائل العربية، فيثورون معهم تبعاً لذلك. ومن أخطر الثورات التي قام بها البربر ضد عبدالرحمن بن معاوية كانت بزعامة رجل اسمه (شقيا بن عبد الواحد المكناسي) وقد استمرت هذه الثورة ما يقارب العشر سنوات (151 – 160هـ / 768 – 777م) (ابن عذاري، 1951: 55)، فادعى شقيا هذا أنّه من ولد الحسن بن علي، وأنّه فاطمي النسب، فاتخذ لنفسه اسماً عربياً هو (عبدالله بن محمد)، وأخذ يدعو الناس للثورة على حكومة قرطبة. وقد بدأت دعوة هذا الرجل الذي كان في الأصل معلماً للصبيان في شنتبرية

(Santaver) الواقعة في شرق الأندلس، ثم امتدت إلى أقاليم عديدة في وسط وشمال الأندلس وغربها (العبادي، 1973: 315). وقد سير الأمير عبد الرحمن بن معاوية العديد من الحملات للقضاء عليه وعلى أتباعه المتمردين، ولكن هذه الحملات كان مصيرها الفشل، بسبب مناعة الجبال التي كانوا يعتصمون بها، وتجنبهم للمعارك الحاسمة في السهول. ولم يتمكن الأمير عبد الرحمن من القضاء على هذه الحركة إلاّ بالتعاون مع أحد زعماء البربر، ويدعى هلال المديوني، الذي عيّنه على شنتبرية، وفوّض إليه مهمة القضاء على التمرد. وقد استطاع المديوني، أن يدبر مؤامرة لاغتياله سنة 160هـ / 777م. وهكذا انتهت هذه الثورة التي شغلت حكومة قرطبة لمدة عشر سنوات (ابن عذاري، 1951 ج2: 55).

مما سبق يتضح أنّ عبد الرحمن بن معاوية قد حرص على ملاقاة خصومه منفردين في ميدان القتال، فاستطاع بذلك أن يقضي عليهم واحداً بعد الآخر قبل أن يتكتلوا ضده، فنجح في إنقاذ الأندلس من الحروب الأهلية، وتناحر العصبيات القبلية، ومن المؤامرات والثورات، وحكم الأندلس مدة ثلاثاً وثلاثين سنة قضاها في كفاح مستمر ضد معارضيه والطامعين في حكم دولته التي بلغت في أيامه أوج نهضتها العلمية والمعمارية والحضارية.

محاولة تغيير مفهوم الحكم من سلطة القبيلة والعصبية والطائفية إلى سلطة الدولة:

كانت السلطة في بلاد الأندلس في عهد الولاة السابقين تعتمد على القبلية والعصبية. وعلى الرغم من وجود والٍ أو أمير للبلاد، كانت كل قبيلة تخضع لزعيمها الذي كان يسعى للحصول على المصالح والامتيازات له ولأفراد قبيلته في إمارته، ويتصرف مع بقية العشائر والقبائل والطوائف وفقاً لهذه السياسة. وكانت بعض القبائل تنكل بغيرها من المنافسين لها عندما تنفرد بالسلطة، وقد رأينا ذلك واضحاً في موقف الصميل ويوسف من بقية القبائل اليمنية، خاصة بعد انتصارهما عليها في معركة شقندة التي كانت بين القيسية واليمنية وانتهت لصالح القيسية.

وعندما استقرت الأمور لعبد الرحمن الداخل اتبع سياسة تقوم على مبدأ السيطرة القوية على البلاد والتقليل من نفوذ رجال القبائل، وإحلال سلطة الدولة ممثلة بالأمير محل سلطة القبائل. وبما أنّ سلطة الدولة كانت فوق سلطة القبائل وثاراتها وصراعاتها، لهذا نجد الأمير عبدالرحمن يقف موقفاً حازماً إزاء مؤيديه حينما حاولوا إثارة الفوضى والانتقام من أهالي قرطبة بعد انتصارهم في معركة المصارة (الدوري، 1982: 251)، حيث اتهمه أنصاره بالتعصب لقبيلته قريش عندما منعهم من التعرض لأهل بيت يوسف الفهري، كما نهاهم عن النهب والسلب، كما ساءهم طرده لهم من القصر.

إنّ شكوك عبدالرحمن الداخل في جدوى الاعتماد على رجال القبائل وزعمائهم، قد ازدادت، عندما اكتشف مؤامرة للتخلص منه في السّاعات الأولى بعد انتصاره على خصومه في موقعة المصارة. ففكر

في تأسيس أول جهاز للشرطة وعيّن عليها عبد الرحمن بن نعيم الكلبي، الذي كان ينتمي إلى قبيلة قضاعة التي ظلت على ولائها له. واختار أيضاً حرسه الخاص من مواليه، كما أحاط نفسه بموالي الأمويين في قرطبة (مؤنس، 1959: 685). ونظراً لقلة المؤيدين له في أول الأمر، فقد اضطر عبد الرحمن الداخل إلى إرضاء قادة القبائل وبشكل خاص اليمنيين، ومن الإجراءات التي قام بها حيال هذا الأمر تعيين زعيمهم أبي الصباح اليحصبي حاكماً على مدينة إشبيلية.

غير أنّ هذا الأمر لم يدم طويلاً، فقد كان عبد الرحمن يخطط للتخلص نهائياً من نفوذ هؤلاء الزعماء. وذلك بخلق قوة جديدة في البلاد، تحل محل قوة رجال القبائل العربية، فاتجه إلى تشجيع البربر على الانخراط في جيشه، ودعا الكثير منهم من شمال إفريقيا وعاملهم معاملة حسنة مما شجع العديد منهم للعبور إلى الأندلس والخدمة في جيش كقوة أساسية (المقري، 1968 ج3: 36-37). أما الخطوة الأخرى التي قام بها فهي تأسيس الدواوين وإنشاؤه لجيش دائم منظم متعدد الأصول، يتألف، إلى جانب العنصر العربي من الموالي والبربر والرقيق الصقالبة يكون ولاؤه للدولة يقدر بحوالي 40,000 ألف (الدوري، 1982: 250؛ نعنعي، 1983: 167).

وفي هذا الصدد يذكر ابن خلدون في مقدمته أنه: "إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية والسّبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلاّ بقوة قوية من الغلبة للغرابة، وأنّ الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه" (ابن خلدون، د.ت: 154).

لقد لجأ عبد الرحمن الداخل في تدعيم ملكه إلى تعويض القوة العسكرية التي كانت تقدمها له العصبية الخاصة أو العامة (القبيلة) بإنشاء جيش من خارج عصبته، وحتى من عناصر أجنبية عن قومه، وإلى إغراق رؤساء قبائل البادية بالأموال، ويمنح الإقطاعات كتعويض عن الامتيازات السياسية التي فقدوها. وهكذا بلغت الدولة الجديدة قمة مجدها في تلك الفترة. ممّا كان له أكبر الأثر في تفوق الأندلس على غيرها من الأقطار الأوروبية المجاورة.

الخاتمة:

إن تركيبة المجتمع الأندلسي في فترة عهد الإمارة لم تكن مهيّأة للتعامل مع الوضع الجديد الذي حاول الأمير عبد الرحمن الداخل فرضه، لأنّ التعصب القبلي كان على أشدّه في الكثير من المواقف، وخاصة بين القيسية واليمنية، ومع ذلك فإنّ اتباع سياسة الترغيب والترهيب ومحاولاته للحد من النفوذ القبلي للقبائل العربية وتدخلها في شؤون الحكم، واستعمال القوة في سبيل الوحدة السياسية قد نجحت ولو بصورة محدودة في العديد من المواقف. وبفضل هذه السياسة التي سار عليها عبدالرحمن الداخل استطاعت الأندلس أن تحيا في استقرار لفترة من الزمن. وترتقي من مجرد ولاية تابعة للخلافة إلى مصاف الدول الكبرى المستقلة.

وقد كان عبد الرحمن رجل الموقف، شحذت من عزمه المحن والكروب، واستطاع بحكمته وحزمه وشجاعته، وحسن تدبيره، وذكائه وسياسته التي قامت على الرفق والعدل والتسامح من ناحية، واستعمال الشدة ضد أعدائه عندما يتطلب الأمر ذلك من ناحية أخرى، أن يغالب الأخطار، ويقوي دعائم الإسلام في تلك الديار، ويكفل للأندلس حكومة إسلامية مستنيرة مستقرة، رائدها التسامح والتصالح بين مختلف مكوناتها، فنعمت الدولة بإدارة صالحة، وتمتعت بحضارة زاهرة نافست حضارة العباسيين في بغداد، وفاقت حضارات الدول الأوروبية المعاصرة لها. فهو بحق كان أول من نثر بذور الحضارة الإسلامية في الأندلس، وعمل منذ قيام دولته في هذه البلاد على تجديد ما زال من حضارة بني أمية في المشرق، مما جعلها، في تلك الفترة، تتمتع بمكانة مرموقة في العالم الإسلامي والمسيحي على السواء.

المصادر والمراجع التي وردت الإشارة إليها:

أولاً: المصادر:

1. ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد التلمساني، أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.
2. ابن القوطية، أبوبكر محمد بن عمر القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، بيروت، 1958.
3. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، مكتبة المثني، بغداد، (د.ت).
4. ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج2، تحقيق: ليفي بروفنسال، بيروت، 1951.
5. المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: احسان عباس، بيروت، 1968.

ثانياً: المراجع:

1. الدوري، إبراهيم ياس، عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، بغداد، 1982.
2. السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب، بنغازي، 2000.
3. العبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1973.
4. الفلاحي، خامد حسين، التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، ج1، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2003.
5. بدر، أحمد، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، دمشق، 1972.
6. دوزي، رينهارت، تاريخ مسلمي الأندلس، ترجمة: حسن حبشي وآخرون، القاهرة، 1963.

7. سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.
8. عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1969.
9. مؤنس، حسين، فجر الأندلس، القاهرة، 1959.
10. نعنعي، عبد المجيد، الدولة الأموية في الأندلس: التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1983.